

## معالم رؤية المسيري للصهيونية "الجماعة" الوظيفية مدخلا للفهم والتفسير"

رجب السيد عزالدين (\*)

### مقدمة:

ثمة مداخل تفسيرية متنوعة لتحليل الظاهرة الصهيونية الحديثة، بعضها يعتمد على الدين ومقولات اليهود واليهودية والمؤامرة العالمية على الإسلام، وهو التفسير الأكثر رواجًا على مستوى أوساط العامة في عالمنا العربي والإسلامي<sup>١</sup>، والبعض

(\*) باحث في العلوم السياسية.

(١) هناك عشرات الكتابات الإسلامية التي تتبنى هذا الخطاب ومقولاته

المختلفة الأساسية والفرعية، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- محمد إبراهيم ماضي، صراعنا مع اليهود بين الماضي والمستقبل، (القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٩٩٢).
- بجاء الأمير، الوحي ونقيضه: بروتوكولات حكماء صهيون في القرآن (القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٦).
- عبد الله التل، الأفعى اليهودية في معازل الإسلام، المكتب الإسلامي (القاهرة، ٢٠٠٨).
- محمد بن مهنا العلي، صراعنا مع اليهود بين الصلح المستحيل والمواجهة الحتمية (الرياض، دار أمية، ١٩٩٣).
- محمد عبد العزيز منصور، يا مسلمون اليهود قادمون، (القاهرة، دار الإعتصام، ١٩٧٨).
- وليم كار، اليهود وراء كل جريمة، المحقق: خير الله الطلفاح (بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٢).
- صلاح عبد الفتاح الخالدي، كتاب حقائق قرآنية عن القضية الفلسطينية، (عمان، دار العلوم للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧).
- أحمد سالم الرحال، فلسطين بين حقيقة اليهود وأكذوبة التلمود، (عمان، دار، ٢٠٠٧).
- عبد الرحمن بن محمد الدوسري، يهود الأمس سلف سيء لخلف أسوأ، (جدة، مكتبة السوادي، ١٩٩٢).
- محمد خليفة التونسي، الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون، (عمان، دار الكتاب العربي، ١٩٨٠).
- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، مكابيد اليهود عبر التاريخ، (دمشق، دار القلم، ١٩٧٨).
- صارم الدين إبراهيم الكوكباني، التنبيه على ما وجب من إخراج اليهود من جزيرة العرب، (عمان، دار الراية، ١٩٩٣).
- أبو بكر جابر الجزائري، هؤلاء هم اليهود فاعتبروا يا أولي الأبصار، (المدينة المنورة، مجلة الجامعة الإسلامية، ٢٠٠٨).
- عبد العزيز بن عبد الله بن باز، حكم الصلح مع اليهود في ضوء الشريعة الإسلامية، (الرياض، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، ١٩٩٦).
- محمد عثمان شبير، صراعنا مع اليهود في ضوء السياسة الشرعية، (الكويت، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ١٩٨٩).
- (٢) يتبنى هذا الاتجاه عدد من المفكرين العرب أمثال د.عزمي بشارة، د. أحمد يوسف أحمد، وغيرهم من الرموز القومية والناصرية واليسارية.

الأخر يعتمد على مقولات الاستعمار وخطط القوى الغربية في الهيمنة على شعوب العالم واستنزاف مواردها<sup>٢</sup>. ويعد د.عبد الوهاب المسيري من أهم الرموز الفكرية العربية -المنتمية للتيار الأخير - وأكثرهم اعتناء بتحليل وتشريح الظاهرة اليهودية والصهيونية خلال العقود الماضية، فقد استحوذت هذه الظاهرة على محور تفكيره وبجته ودراسته لمدة تزيد على أكثر من خمسة وعشرين عامًا إلى أن انتهى من أكبر عمل موسوعي عربي معاصر حول اليهود والصهيونية في عام ١٩٩٩.

صدرت موسوعة المسيري بعنوان "اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جديد" ليعبر بذلك عن الفكرة الأساسية التي تتمحور حولها موسوعته، وهي التمييز بين اليهودية واليهود من ناحية، والحركة الصهيونية من جهة أخرى، بما يعني تفكيك كل الديباجات والمقولات والأساطير الدينية والتاريخية التي تحاول ربط الصهيونية باليهودية. كما انتقلت الموسوعة من التفكيك إلى التأسيس عبر طرح رؤية

عربية بديلة للظواهر اليهودية والصهيونية ونحت مصطلحات جديدة لوصفها واقترح مداخل تفسيرية مركبة لفهمها وتحليلها، وكان نموذج "الجماعة الوظيفية" من أهم النماذج التفسيرية التي قدمها المسيري في هذا السياق.

استطاع المسيري من خلال هذا المدخل أو النموذج التفسيري تفكيك المقولات الدينية التي يستخدمها الكيان الصهيوني للتغطية على ماهيته الاستعمارية الاستيطانية الأصلية من أمثلة (أرض الميعاد - التوراة - العودة لأرض الأجداد - بناء الدولة اليهودية - نحن اليهود)، كما استطاع تفكيك المقولات الدينية المضادة المستخدمة في جانب من أصحاب الخطاب الإسلامي المقاوم من أمثلة (الصراع مع اليهود - الجهاد ضد اليهود - أحفاد بني إسرائيل). لي طرح بعد ذلك تفسيراً مختلفاً للظاهرة الصهيونية من خلال ربطها بالظاهرة الاستعمارية، فتصبح الأولى نتيجة للثانية، وتصبح إسرائيل هي القاعدة العسكرية الوظيفية الكبرى في الشرق الأوسط لتحقيق مصالح القوى الاستعمارية الغربية، وهي تقوم بهذه الوظيفة مقابل الدعم الذي تتلاقاه والذي يشكل أساس بقائها فيما يعرف بنموذج "الدولة المملوكية الطفيلية" التي تعتمد في أساس وجودها على غيرها.

وتهدف هذه الورقة إلى إلقاء الضوء على مفهوم الجماعة الوظيفية ومدى قدرته التفسيرية في قراءة وتحليل تاريخ الجماعات اليهودية الحديثة والمعاصرة وصولاً إلى الحركة الصهيونية ومنتجها الرئيسي في العالم العربي المسمى "إسرائيل"، وذلك اعتماداً على موسوعة المسيري (الجزآن الثاني والسابع تحديداً)، وكتاب "الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيري جديد"، وفقاً للمحاور التالية:

الجماعات الوظيفية مصطلح قام المسيري بصكه استناداً إلى مصطلحات قريبة في علم الاجتماع، لوصف مجموعات بشرية تستجلبها المجتمعات الإنسانية من خارجها، في معظم الأحيان، أو تجنّدها من بين أعضاء المجتمع أنفسهم من بين الأقليات الإثنية أو الدينية، أو حتى من بعض القرى أو العائلات. ثم يوكل لأعضاء هذه المجموعات البشرية أو الجماعات الوظيفية وظائف شتى لا يمكن لغالبية أعضاء المجتمع الاضطلاع بها لأسباب مختلفة من بينها: رغبة المجتمع في الحفاظ على تراثه وقداسته، ولذا يوكل لأعضاء الجماعات الوظيفية بعض الوظائف المشينة (الربا - البغاء)، أو الوظائف المتميّزة (القضاء - الترجمة - الطب) التي تتطلب الحياد والتعاقدية. كما أنه قد يوكل لأعضاء الجماعات الوظيفية الوظائف ذات الحساسية الخاصة وذات الطابع الأمني (حرس الملك - طبيبه - السفراء - الجواسيس). ويمكن أن تكون الوظيفة مشينة و متميّزة وحساسة في آن واحد (مثل الخصيان والوظائف الأمنية على وجه العموم). كما أن المهاجرين عادةً ما يتحولون إلى جماعات وظيفية (في المراحل الأولى من استقرارهم في وطنهم الجديد)؛ ذلك لأن الوظائف الأساسية في وطنهم الجديد عادةً ما يكون قد تم شغلها من قِبَل أعضاء الأغلبية. ولذا يمكن تسمية أعضاء الجماعات الوظيفية "المتعاقدين الغرباء". وقد يلجأ المجتمع إلى استخدام العنصر البشري الوظيفي ملء فجوة أو ثغرة تنشأ بين رغبات المجتمع وحاجاته من ناحية، ومقدرته على إشباع هذه الرغبات والوفاء بها من ناحية أخرى، ومن أمثلة ذلك نشأة الحركة الصهيونية واستعمارها الاستيطاني لفلسطين والحاجة المستمرة لمستوطنين جدد لتوطينهم<sup>(١)</sup>.

(١) عبد الوهاب المسيري، الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيري

جديد، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٢، ص ص ١٤-١٥.

## ثانياً- تطبيق المفهوم في قراءة تاريخ اليهود:

اهتمت موسوعة المسيري (اليهود واليهودية والصهيونية: مدخل تفسيري جديد)<sup>(١)</sup> بدراسة "الجماعات اليهودية"<sup>(٢)</sup> في إطار علم اجتماع الأقليات والجماعات التجارية الهامشية والجماعات الإثنية، حيث يظهر اليهودي باعتباره عضو أقلية أو جماعة وظيفية، وما يحدث له يحدث لكل أعضاء الأقليات والجماعات الوظيفية الأخرى، أي أن اليهودي يظهر باعتباره الإنسان عضو الأقلية الدينية أو الإثنية أو الوظيفية.

اكتشفت الموسوعة من خلال عملية استقراء واسعة لتاريخ الجماعات اليهودية، أن نموذج الجماعات الوظيفية كان أكثر النماذج قدرة على تفسير واقع هذه الجماعات عبر تاريخها القديم والمعاصر وصولاً إلى إسرائيل، بما يكشف عن حالة استمرارية تاريخية متعينة في تواريخ الجماعات اليهودية،

(١) يمكن أن نعرف الموسوعة بأنها دراسة لحالة محددة هي اليهود واليهودية والصهيونية في الحضارة الغربية أساساً، وهي دراسة تاريخية اجتماعية مقارنة تركز على العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين أعضاء الجماعات اليهودية - بما في ذلك أعضاء الجماعات اليهودية في المستوطن الإسرائيلي - من جهة وأعضاء المجتمعات المختلفة من جهة أخرى، كما تركز على الأبعاد المعرفية لهذه العلاقات وتطرح مقولات تفسيرية تصلح لقضايا عامة مثل: علاقة الأقلية بالأغلبية، وعلاقة الأقليات بالدولة القومية المركزية، وطبيعة الحضارة الغربية الحديثة، وعلاقة الإنسان بالطبيعة، وعلاقة الحلولية بالتوحيد، وعلاقة الفكر بالمادة. وأول هذه النماذج هو نموذج الجماعات الوظيفية. راجع: عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: مدخل تفسيري جديد، المجلد الثاني، (القاهرة، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٩٩).

(٢) "الجماعات اليهودية" مصطلح تستخدمه الموسوعة بدلاً من مصطلح "اليهود" للدلالة على أنهم جماعات مختلفة متفرقة غير متجانسة لا يمكن تفسيرها إلا من خلال دراسة سياقهم التاريخي والإنساني العام، ومقارنتهم بأعضاء الأقليات (الدينية والإثنية) الأخرى، على عكس ما تميل إليه معظم الدراسات التي تتناول أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم كياناً واحداً متجانساً مستقلاً، له آليات وحركياته وأنماط تطوره الخاصة به والمقصورة عليه، والتي يمكن فهمها من خلال إدراك ما يُسمى "الخصوصية اليهودية" ومن خلال دراسة ما يُسمى "التاريخ اليهودي". المرجع السابق، ص ٢٠٢-٢٠٣.

وهي اصطلاحهم بدور الجماعة الوظيفية. كما رصدت الموسوعة عدة أسباب تفسر ظاهرة تحوّل كثير من الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية تتنوع بين التاريخي والاجتماعي والديني والسياسي، أهمها علاقتهم بالزراعة والطبيعة الإقطاعية للمجتمع الغربي<sup>(٣)</sup>. وقد اضطلع أعضاء الجماعات اليهودية بأدوار وظيفية عديدة أهمها: الوظيفية الاستيطانية القتالية، والوظيفية المالية الوسيطة في مجالات التجارة -الربا- جمع الضرائب-المتعهدون العسكريون -تجارة الرقيق -تجارة الخمر، إضافة إلى وظائف أخرى في مجالات الطب، والجاسوسية، وقطاع اللذة والبغاء، وتجارة الرقيق الأبيض<sup>(٤)</sup>.

كما اكتشفت الموسوعة أن التحديث الفجائي و ظهور الدولة المركزية الحديثة في شرق أوروبا التي اضطلعت بكثير من وظائف الجماعات الوظيفية، قد أسهما بشكل كبير في إسراع عملية تفكيك وتآكل مراكز الجماعات اليهودية في المجتمعات الأوروبية وخلق فائض بشري يهودي بلا وظائف، مما أدى إلى ظهور ما يسمى "المسألة اليهودية". ففي أواخر القرن التاسع عشر، كانت الغالبية الساحقة من يهود أوروبا من نسل يهود بولندا الذين كانوا يعملون داخل نظام (الأرندا)<sup>(٥)</sup> الذي

(٣) المرجع السابق، ص ٢٣٤-٢٣٨

(٤) المرجع السابق، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٥) «أرندا» كلمة بولندية تعني حرفياً «أجرة» تُدفع مقابل استئجار. وهي كمصطلح، تُستخدم للإشارة إلى استئجار ممتلكات ثابتة، مثل الأرض والطواحين والفنادق الصغيرة ومصانع الجعة ومعامل تقطير الكحول، أو إلى امتيازات أو حقوق خاصة مثل تحصيل الجمارك والضرائب. وقد تم تبني المصطلح بالمنطق والمعنى المذكور في البديشية والعبرية. وكان يُشار إلى المستأجر نفسه، خصوصاً الصغير، على أنه «أرندا»، كما كان يُقال له «الأرندااتور». وكان المصطلح ذائع الانتشار ويصف واحداً من أهم جوانب الاقتصاد البولندي الليتواني في أواخر العصور الوسطى. وقد ارتبط يهود بولندا بنظام الأرندا من بدايته. فهم، كجماعة وظيفية وسيطة عميلة، كانوا مهيبين للاضطلاع بهذا الدور، خصوصاً أن المؤسسة اليهودية الأرثوذكسية أحلت عمليات الإقراض بالربا بين اليهود من خلال التخلّة، وهو ما سهّل لأي يهودي أن يُؤمّل يهودياً آخر ويفرضه بربا، الأمر الذي وفر الاعتمادات اللازمة

وصفته الموسوعة بـ"الإقطاع الاستيطاني"، فكانوا يشكلون عنصرًا استيطانيًا يقوم بجمع الضرائب واستغلال الفلاحين الأوكرانيين لصالح طبقة النبلاء البولنديين (شلاختا) وفي حماية القوة العسكرية البولندية. ومع بدايات القرن التاسع عشر، ومع تزايد هيمنة الدولة القومية المركزية، فقد أعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية دورهم وتحولوا إلى فئات بشري يهودي بدأ يهدد الأمن الاجتماعي في كثير من دول أوروبا الشرقية، وبدأ يتدقق على دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة فيهدد الأمن الاجتماعي فيها أيضًا، أو هكذا تصور كثيرٌ من أعضاء النخبة الحاكمة وأعضاء الجماعات اليهودية المندمجة في المجتمع الغربي<sup>(١)</sup>.

### ثالثًا - التطبيق على الحالة الصهيونية:

#### أ) التسكين على خريطة الجماعات الوظيفية:

تنتمي الدولة الصهيونية إلى نماذج الدول الاستيطانية الوظيفية، ويعتمد هذا النموذج على عنصر سكاني يتم نقله من وطنه الأصلي ليقوم على خدمة مصالح الدولة الإمبريالية الراعية التي أشرفت على عملية النقل السكاني وساهمت في عملية قمع السكان الأصليين (عن طريق الإبادة أو الطرد أو الإرهاب) وضمنت له الاستمرار والبقاء. وتقتصر الموسوعة قراءة نموذج الدولة الصهيونية في إطار ثلاث نماذج للجماعات الوظيفية، اثنان منها في التاريخ الحديث، وهما نموذج الجماعات اليهودية في أوكرانيا ونموذج المماليك في مصر، والثالث في التاريخ المعاصر وهو نموذج الجماعة الوظيفية الاستيطانية في جنوب إفريقيا. وهذه النماذج يمكنها تفسير طبيعة علاقة التجمُّع الصهيوني بكل من الإمبريالية (مصدر

المال) والدول العربية المجاورة (موضع القتال)، بل يُفسَّر أيضًا طبيعة علاقته مع نفسه وسر إصراره على هويته المزعومة وانتمائه الغربي وعزله الدائمة<sup>(٢)</sup>.

وتستخدم الموسوعة مصطلح "الدولة المملوكية" لوصف ماهية "الدولة الصهيونية"؛ تشبيهاً بنموذج المماليك الانكشارية في مصر واضطلاعهم بدور الجماعات الوظيفية القتالية. وترى الموسوعة أن هذا الوصف له قيمة تفسيرية تصنيفية عالية على المستويين التاريخي والبنوي. أما من الناحية التاريخية، فقد سبقت الإشارة إلى أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية من يهود الأرندا في أوكرانيا (وغيرهم من أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية الأخرى) باعتبارهم "مماليك مالية". وبناء عليه، تذهب الموسوعة إلى أن كل ما أنجزه المشروع الصهيوني هو تجنيد نموذج المماليك المالية تلك ثم نقلهم بمعونة الدول الغربية إلى الشرق العربي، حيث تحولوا إلى ممالك قتالية داخل إطار الدولة الوظيفية. وأصبحت الوظيفة المالية إما ثانوية أو غير مباشرة، فهي دولة وظيفية قتالية يمكن أن نسميها دولة مملوكية<sup>(٣)</sup>.

#### ب) لماذا وقع الاختيار على اليهود؟

تتنوع الأسباب التي ساقها المسيري لتفسير لجوء الاستعمار الغربي لاختيار عنصر اليهود ليكون المادة البشرية للدولة الصهيونية الجديدة، فقد نشأت حاجة داخل التشكيل الحضاري والسياسي الغربي لتأسيس "جيب استيطاني" قتالي يُشكِّل قاعدة للاستعمار الغربي في فلسطين، وبخاصة مع تَوَقُّع سقوط الدولة العثمانية، التي كانت فلسطين تقع في وسطها في مكان يبلغ الغاية في الأهمية من الناحية الاستراتيجية. ويرى المسيري أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا مرشحين لأن

للاستثمارات. وكان الارتباط بين أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا وهذا النظام من العمق بحيث أن كلمة «أرنداتور» أصبحت مرادفة لكلمة «يهودي». راجع: المرجع السابق، المجلد الأول: فهرس المصطلحات.

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٧.

(٢) راجع المقارنة بين الحيين الاستيطانيين في إسرائيل وجنوب أفريقيا، المرجع السابق، المجلد السابع، ص ص ٧٠-٧٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٤.

يلعبوا دور المادة البشرية التي تفي بهذه الحاجة للأسباب التالية<sup>(١)</sup>:

- النزوع الصهيوني نحو نقل اليهود إلى فلسطين، نزوع متأصل في الحضارة الغربية، إذ أن هذه الحضارة كانت تنظر لليهود باعتبارهم وسيلة لا غاية، وباعتبارهم شعباً عضواً لا ينتمي للحضارة الغربية.

- كان اليهود، باعتبارهم شعباً عضواً، حسب التصور الغربي، مرتبطين بشكل عضوي بفلسطين. وكانت كل دولة تُصدر وعودها البلفورية، كما كان لكل دولة مشروعها الصهيوني الخاص الذي يرى اليهود باعتبارهم المادة البشرية المناسبة. ففكر "بسمارك" في توطين اليهود في منطقة حدودية محاذية لخط بغداد-برلين ليصبحوا جماعة وظيفية تصطدم بالسكان وتعتمد على ألمانيا لحمايتها، بل نجد الفاشيين تحت حكم "موسوليني" والنازيين تحت حكم "هتلر" كان لهم أكثر من مشروع. وبطبيعة الحال، كان هناك المشاريع الإنجليزية والفرنسية المختلفة. وقد رفضت أغلبية التشكيلات اليهودية في بداية الأمر فكرة الدولة الوظيفية. ومع تَعَثُّر التحديث، طرحت مسألة يهود شرق أوروبا نفسها على أوروبا، وبدأت أعداد من اليهود تفكر في الانتقال. ثم ظهر "هرتزل" الذي طوّر الخطاب الصهيوني، وقد أفرز هذا في نهاية الأمر المنظمة الصهيونية التي وقّعت العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية بشأن يهود العالم، والذي تم بمقتضاه تأسيس الدولة الصهيونية الوظيفية التي هي إعادة إنتاج لنمط الجماعة الوظيفية التي تحركت في إطاره الجماعات اليهودية في الغرب.

ومن هنا طرحت الصيغة الصهيونية الأساسية التي تعتمد على فكرة توطين هذه الجماعات في فلسطين كحل للمسألة اليهودية في العالم الغربي يتلاقى في نفس الوقت مع الرغبة في

غرس جماعة وظيفية جديدة في العالم العربي. وهذا ما حدث بالفعل حيث قام التشكيل الاستعماري الغربي بجمع بعض "المنفيين" (الشتات في تصورهم) الذين هم في واقع الأمر أعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية التي فقّدت وظائفها وتحوّلت إلى فائض بشري، وهي جماعات كانت تضطلع بمهام عديدة من أهمها الأعمال المالية التجارية والربوية في مجتمعات مختلفة. وقد قام هذا التشكيل الاستعماري بنقل أعضاء هذا الفائض إلى فلسطين وتحويله إلى جماعة وظيفية واحدة تأخذ شكل دولة تضطلع بدور أساسي: الاستيطان والقتال. وهو دور يصفه المسيري بـ "الدور المملوكي" - كما ذكرنا آنفاً - على اعتبار أن الممالك جماعة وظيفية تم استيرداها إلى الشرق العربي للاضطلاع بدور القتال.

#### ج) لماذا وقع الاختيار على نموذج الدولة الاستيطانية؟

لماذا لجأت الدول الغربية إلى نموذج الدولة الوظيفية لتحقيق أهدافه دون غيرها من الأشكال الوظيفية التقليدية؟ ولماذا لم تلجأ الدول الغربية إلى فكرة الجماعة الوظيفية المباشرة وهي الأكثر شيوعاً في تاريخ الجماعات الوظيفية؟ لما لم يُوطَّن الاستعمار الغربي اليهود في فلسطين ليقوموا بدور الجماعة الوظيفية القتالية التي تعمل تحت إشرافه ولصالحه بشكل مباشر كما فعل الفرس والميلينيون من قبل حيث وظفوا الجماعات اليهودية بهذا الشكل؟

يرصد المسيري مركب من الأسباب المفسرة لهذه الظاهرة، ولعل أهمها: طبيعة المجتمعات في العصر الحديث حيث تغلغت فيها مثل الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وهي مجتمعات تربطها وسائل الاتصال الحديثة من صحافة وتلفزيون ووسائل مواصلات واتصال، تجعل الاحتفاظ بطبقة منعزلة حضارياً، ومتميّزة وظيفياً وطبقياً، أمراً عسيراً، بل مستحيلاً. ولكن إذا شكلت هذه الطبقة دولة قومية مستقلة، فيمكنها حينذاك أن تحتفظ بعزلتها وتميّزها بسهولة ويُسر، كما يمكن تسويغ وجودها وحققها في البقاء باللجوء إلى دياجحة

(١) المرجع السابق، ص ٣٠-٣١

حديثه، ويصبح الاستعمار الاستيطاني "حركة تحرر وطني"، ويتخذ اغتصاب فلسطين اسم إعلان استقلال إسرائيل، ويصبح الدور القتالي دفاعاً مشروعاً عن النفس، وتتخذ قوات الجماعة الوظيفية الاستيطانية القتالية اسم "جيش الدفاع الإسرائيلي"، وتصبح العزلة هي الهوية، وتصبح لغة المحاربين لا التركية أو الشركسية (كما هو الحال مع المماليك) وإنما العبرية، وهي لغة أهم كتب العالم الغربي المقدّسة. ويعيش أعضاء الجماعة الوظيفية القتالية لا في "جيتو" خاص بهم أو ثكنات عسكرية مقصورة عليهم وإنما داخل الدولة (الشتل/القلعة)، ويستمرّون في تعميق هويتهم (أي عزلتهم) وفي القتل والقتال نظير المال والمكافآت الاقتصادية وغير الاقتصادية السخية، متخفين خلف أكثر الدياجات رقيماً وحدائثاً. لكل هذا، لجأ العالم الغربي لصيغة الدولة الوظيفية الاستيطانية القتالية (الملوكية) وذلك بدلاً من الجماعة الوظيفية الاستيطانية القتالية. وهذا هو الترجمة الدقيقة للشعار الصهيوني: تحويل اليهود من طبقة (أي جماعة وظيفية) إلى أمة (أي دولة وظيفية)<sup>(١)</sup>.

#### د) لماذا تبدو إسرائيل شبه مستقلة؟

يلاحظ المسيري عددًا من المفارقات في علاقة الدولة الصهيونية بالدولة الراعية (أمريكا حاليًا)؛ فرغم اعتماد إسرائيل الكلي على الدولة الراعية، إلا أنها لاتزال تحتفظ بقدر من الاستقلال النسبي، وقد يبدو هذا لأول وهلة وكأنه تناقض، ولكنه تناقض مبني على فهم غير دقيق لطبيعة العلاقة بين الاستعمار الاستيطاني الصهيوني والاستعمار الغربي؛ فالاستعمار الاستيطاني الصهيوني يشكل جزءًا عضويًا لا يتجزأ من الاستعمار الغربي، بل هو مجرد آلة في يد الغرب. ومن الملاحظ أن كل الدول والجيوب الاستيطانية عبر العالم تعتمد على إحدى الدول الغربية، في المراحل الأولية من

تطورها. وتحدد مجموعة من الظروف التاريخية والسياسية مدى هذا الاعتماد ومدته والشكل الذي يأخذه: فبعض الجيوب الاستيطانية مثل أنجولا والجزائر تظل منفتحة تمامًا على الوطن الأم، وتحتفظ بروابط قوية بل وعضوية معه، وتستمد إحساسها بهويتها منه، ولذا فإن كل ما يقرره الوطن الأم يكون بمنزلة القانون الذي يجب أن ينفذ. ذلك لأن الجيب الاستيطاني، في هذه الحالة، مهما بلغ من قوة واستقلالية، لا يعدو أن يكون جزءًا عضويًا من الوطن المستعمر. وإذا تعارضت المصالح بين الوطن والجيب الاستيطاني، لسبب أو آخر، وثبت أن الأخير مكلف ومعوق، فإنه يتم تصفيته ويتم إعادة المستوطنين إلى أرضهم الأصلية التي نزحوا عنها، ويتم حسم الصراع لصالح الدولة الأم. ومن ناحية أخرى، توجد بعض الجيوب الاستيطانية التي تحصل على درجة من الحكم الذاتي والاستقلال النسبي عن الدولة الغربية التي ترعاها. ويستولي المستوطنون، إن عاجلاً أو آجلاً، على السلطة، ويقومون دولة خاصة بهم، مقصورة عليهم، كما هو الحال بالنسبة للولايات المتحدة ودولة جنوب أفريقيا العنصرية. وكان المخطط الصهيوني يهدف إلى أن تكوين الدولة الصهيونية الوظيفية من النمط المستقل. وحين سأل الاستعماري البريطاني سير "سيسل روديس" الزعيم الصهيوني "وايزمان" عن سبب اعتراضه على وجود سيطرة فرنسية محضة على الدولة الصهيونية، رد الأخير قائلاً: إن الفرنسيين ليسوا كالإنجليز، إذ أنهم يتدخلون دائماً في شؤون السكان (أي المستوطنين) ويحاولون أن يفرضوا عليهم الروح الفرنسية. وقد قام الصهاينة بطرد الفلسطينيين فعلاً، وأنشأوا دولتهم الصهيونية المستقلة، ولكن التطورات التاريخية أظهرت أن الجيب الصهيوني لا يندرج تحت أي نوع من أنواع الاستيطان المألوفة، فهو يعتمد على قوة غربية عظمى اعتماداً كاملاً، ولكنه في الوقت نفسه

(١) المرجع السابق، ص ٢٩.

يتمتع بدرجة كبيرة من الاستقلال، ومثل هذا الوضع الشاذ يمكن إرجاعه إلى خصوصية الحالة الصهيونية<sup>(١)</sup>.

#### خاتمة:

من خلال ما سبق، يمكننا تلخيص رؤية المسيري للظاهرة الصهيونية في عدة نقاط مفتاحية سريعة بعضها يتبلور في شكل انتقادات لما هو سائد من تصورات، والآخر يتبلور في شكل مقولات وفرضيات أكثر تحليلاً وتفسيراً للظاهرة:

● الدولة الصهيونية ليست دولة يهودية وما تستخدمه من شعارات ومقولات دينية لا تعدو مجرد ديباجات دعائية لإخفاء طابعها الاستعماري الاستيطاني الأصلي. ويعد مدخل "الجماعة الوظيفية" الأكثر تفسيراً لماهية هذا الكيان وأسباب وجوده، وكذلك هو الأكثر تحديداً للمعالم أو طريقة زواله، كما أنه الأفيد عملياً للقضية.

● الدولة الصهيونية ما هي إلا امتداد للتشكيل الاستعماري الغربي، والتزام الغرب نحوها نفعي وظيفي وليس أخلاقياً، ومن ثم لا يمكن فهمها إلا من خلال استيعاب ثوابت ومنطلقات الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة، كما لا يمكن الفصل بين مواجهة إسرائيل ومواجهة المصدر الذي يمدّها بعناصر ومقومات البقاء، الأمر الذي يجعل من معاداة المصالح الأمريكية والغربية وإلحاق الضرر بها وتفكيكها أحد المحاور المركزية التي يجب أن تتأسس عليها أي استراتيجية عربية مقاومة لإسرائيل.

● استخدام مقولات اليهود واليهودية في الخطاب الإسلامي المعاصر أقل تفسيراً وأكثر ضرراً لقضية الصراع مع إسرائيل، كما يتناقض مع القيم الكلية الإسلامية في العلاقة مع الآخر وعالمية الرسالة والقواعد الكلية الحاكمة لفلسفة الحرب في الإسلام. ومن ثم، فإن استدعاء خطاب الجهاد ضد الاستعمار بدلا من الجهاد ضد اليهود هو الأكثر تفسيراً والأكثر اتساقاً مع القيم الإسلامية الكلية. وبالتالي، فإن مدخل "الجماعات الوظيفية" للمسيري في التعامل مع الظاهرة الصهيونية يمنع من وقوع الخطاب العربي والإسلامي في فخ تناقضات أخلاقية.

● وأخيراً، ثمة تقصير عربي في الاستفادة من الأعمال التي أنجزها المسيري بخصوص الصهيونية (خاصة الموسوعة)، يظهر في مستويين، الأول: يتمثل في انقطاع التحليل التراكمي للظاهرة الصهيونية وتطوراتها المعاصرة من منظور المداخل التفسيرية التي طرحتها الموسوعة، والثاني: يتمثل في العجز عن تحويلها إلى استراتيجيات وسياسات عملية وخطط عمل عربية وإسلامية ضمن مشروع استراتيجي شامل لمقاومة إسرائيل والقوى الاستعمارية الراجعة لها.

\*\*\*\*\*

(١) المرجع السابق، ص ٤٩-٥٠.